

الحضارة المصرية في عهد الدولة الوسطى

بحث للعمدة الأثرى أريك بيت

للأستاذ أحمد نجيب هاشم

الرفيق :

أحدث الغزو الأجنبي تغييرات أخرى في المجتمع ، فأصبح الرقيق الأجنبي طائفة خاصة ، وكان أغلبهم من الشام وقليل من النوبة ، ولذا أصبحت لفظة « عام » مرادفة لرقيق في عهد الأسرة الثانية عشرة — ولم يكن هؤلاء الأرقاء ملحقين بخدمة الأفراد فقط ، بل كان الكثيرون منهم يلحقون بخدمة المابد كنصيب الآلهة في غنائم الحرب . على أن نصيب المابد لم يقتصر على الرقيق ، بل كان يتألف عدد كبير من الماشية ومقدار عظيم من الغلال ، وكثير من الغنائم المختلفة التي تعود بها الحملات الخارجية — وقد أدى ذلك بطبيعته إلى ازدياد ثروة طائفة الكهنة واعددهم ، فقويت هذه الطائفة حتى استطاعت بعد ألف سنة أن تخلع الفراعنة من عروشهم

مركز النساء :

ولم يكن مراكز النساء في هذا المجتمع حقيراً بأي حال ، ولكن مجال السيدة كان في البيت ، ولذا كان لقبها « بنت بر » أى ربة المنزل ، وزاها في النقوش ممثلة بلون أصفر خفيف . أما الرجال ، فكانوا يمثلون بلون نحاسي داكن نظراً لقضائهم أغلب وقتهم في الهواء الطلق تحت أشعة الشمس — وكانت السيدة تقوم بالأعمال المنزلية المختلفة من خبز وعمل الجمعة وغزل ونسج ، وقد يساعدوا الرجل في كل ذلك أحياناً — وكان الزوج يحب زوجته ، وزاها في النقوش الظاهرة على جدران المقابر جالسة وقد

وضعت ذراعها وراءه ، أو مرافقة له في زهاته للاستياد في المستنقعات ، وكانت ترسم عادة في هذه الظروف بشكل أصغر ، ولعل ذلك دلالة على أنها كانت تأخذ بنصيب أقل في هذه الرياضة ولا تعرف عن الطقوس الخاصة بحفلات الزواج شيئاً ما ، وجرت العادة أن يكتب الرجل بزوجته واحدة ، ولكن هناك أمثلة كثيرة لرجال اتخذوا زوجتين أو أكثر . والظاهر أن القانون لم يمنع تعدد الزوجات ، وقديماً أيام الأسرة الخامسة أوصى الحكيم بتاح حتب وزير الملك إسيى بحبة الزوجة ، فقال في نصائحه المشهورة : « كَوْنْ لِنَفْسِكَ مَزْلاً ، وَأَحْبِ زَوْجَتَكَ ، وَكَفِّهَا حَاجَتَهَا مِنَ الطَّعَامِ وَاللِّبْسِ ، وَقَدِّمْ لَهَا الْعَطَرَ ، فَإِنَّهُ دَوَاءٌ لَهَا ، وَأَدْخِلْ عَلَى قَلْبِهَا السَّرُورَ مَدَّةَ حَيَاتِكَ ، إِنَّ الْمَرْأَةَ حَقْلٌ نَافِعٌ لَزَوْجِهَا إِذَا أَحْسَنَ مَعَامَلَتَهَا ! »

الزواج من الأوث :

كثيراً ما يقال إن الملوك المصريين كانوا يتزوجون من أخواتهم ، ولا جدال في أن البطالسة فعلوا ذلك ، بل هناك أمثلة أقدم منهم عن هذا النوع من الزواج ، ولكن ليس لدينا ما يدل على أنه كان قاعدة عامة ، فإن إشارات التصائد الفرابية إلى الصديقة بلفظ « أختي » جعلت البعض يمتقدون أنها تشير إلى وجود هذه العادة ، ويجب أن نشك في صحة هذا الاعتقاد ، لأن التعبير في هذه الأحوال قد يكون مجرد لفظ تقدير وإعزاز

كذلك يمتقد البعض أن الوراثة كانت تؤول عن طريق الابنة الكبرى ، ولكن الأمثلة التي ضربت لتأييد ذلك تدل على أن الميراث آو إلى البنت ونسلها في حالة موت أبناء الرجل دون أن يتركوا وريثاً .

النساء الطاهات :

وقد لعب النساء دوراً هاماً في نظام الكهنة ، فكان يهدى إليهن — بصفة خاصة — الحفلات الموسيقية التي كانت تقام للآلهة من ذكور وإناث ؛ وفي عهد الدولة الحديثة أصبح أولئك الكاهنات الموسيقيات محظيات للاله آمون رع ، وكانت تعرف

يربط جانباه إلى الأمام ، ويتبين ما مبدعة مثلك الشكل مصنوعة من نسيج القميص نفسه ؛ ويلبس رب الأسرة في قدميه نعالاً مصنوعة من البردى ، أو من الجلد ، ويلبس زوجته ملابس بسيطة من الكتان الأبيض ، هي مهلهل ضيق غير مكتمل ، كاس للجسم من الشدين إلى القدمين ومثبت فوق الكتفين بشرطين من النسيج نفسه ، وكانت تلبس فوقه في الحفلات والولائم قميصاً آخر به خيوط من الخرز . وهكذا كانت الملابس في الدولة الوسطى تتأثر ببساطتها ، أما في الدولة الحديثة فقد تعددت الأزياء واعتاد صاحب البيت أن يقص شعره قصيراً أو يحلقه بالموسى وأن يضع على رأسه في الحفلات الرسمية قلانس شعرية ، وهذه القلانس نوعان : أحدهما قصير الشعر أجمده ، والآخر شعره طويل ناعم مفروق في الوسط ، وكانت الزوجة تترك شعرها مرصلاً إلى الأمام في صفيحتين على كتفها ، وليس لنا أن نقرض أنفسنا من الشعر الطبيعي ، لأن هناك رسوماً كثيرة عن نساء راقيات ونشأت صغيرات وخدم بشعر قصير جداً ، وكان أطفال البيت الصغار لا يتقلون أنفسهم بالملابس ، أما الكبار منهم فكانوا يتشبهون بالديهم ، فالأولاد يلبسون قميصاً قصيراً ، والبنات يلبسن مهلهلاً طويلاً ، ويضع الأولاد خصلة طويلة من الشعر ، ويكتفي البنات بخصلة قصيرة

الحياة المنزلية :

وليمت الحياة في البيت حياة كسل أو تحول ، فنجد في إحدى الحجرات الخدم يفرلون الكتان على منازل أولية لا تزال تستعمل في الأمم المتأخرة ، بينما يشتمل آخرون على النول الأفقي أو العمودي بنميج أنسجة تيلية تختلف خيوطها من حيث الدقة والثانة ، ولا تزال بعض هذه المصنوعات موجودة ، وهي لا تقل جمالا وجودة عن أجمل الحرائر الحالية — ولا نعرف إلا الشيء القليل عن استعمال الصوف في الدولتين القديمة والوسطى — بيد أن المعاطف الثقيلة التي تراها ممثلة أحيانا على التماثيل أو فوق النقوش ، لا بد أنها كانت مصنوعة منه وزرى العمل قائما على قدم وساق لإمداد الطعام في مطبخ

رئيسهن بزوجة الإله ؛ والظاهر أن هذه الحالة وجدت في عهد الدولة الوسطى أيضا .

المنازل وهندستها :

نعرف تفاصيل الحياة المنزلية من الرسوم الكثيرة الواردة على جدران المقابر ، بيد أننا لا نعرف إلا الشيء القليل عن البيت العادي ، إذ لم يبق من بيوت الدولة الوسطى أو القديمة سوى بيوت مدينة صغيرة بنيت خصيصاً في اللاهون للمال الذين اشتغلوا ببناء هرم الملك سنوسرت الثاني ؛ وأغلب هذه البيوت أكواخ للمال والبيوت القليلة التي أعدت لمراقبي العمل كانت أكبر حجماً ، واختلفت اختلافاً كبيراً عن منازل الدولة الحديثة التي نعرفها جيداً من آثار تل الممارنة

أجل ، لقد كانت مادة البناء واحدة في الحالتين ، فاستعمل اللبن والخشب ؛ كذلك حوى كل بيت بهواً بأعمدة يقوم السقف عليها ويدخل إليه النور من نوافذ في أعلى الجدران فوق مستوى أسقف الحجرات المجاورة ؛ ولكن بينما نجد في منازل تل الممارنة نافذة للهوا الأوسط مفتوحة نصفها نحو السماء إلى الجهة الشمالية والغربية ، نرى الهوا الأوسط في بيوت اللاهون يتقدمه حجرة نسيجة بمرض البيت ، ويتقدم هذه بهو ذو أعمدة

المزمار :

والآن ، فلنحاول أن نتخيل سكان هذا البيت هناك . أولاً : رب الأسرة ، ويرتدى في الأحوال العادية إزاراً قصيراً من نسيج الكتان الرقيق يصل إلى ما بعد ركبتيه بقليل ، وقد يلبس في مناسبات أخرى فوق هذا الإزار قميصاً أطول يصل إلى عقبيه — وقد يكون في بعض الأحوال لحايته من البرد ، ولذا كان يصنع من نسيج أكثر سمكا — ولكن لم يكن ذلك شرطاً أساسياً ، فكثيراً ما كان يصنع من كتان رقيق جداً ، فيظهر القميص القصير الذي تحته

ومن الملابس النادرة التي تلبس في الحفلات ، ويلبسها الملك بصفة خاصة ، قميص الصيد ، وهو قميص من الكتان ذو ثنيات

وسائل للتسلية حسب ، بل استملا بكثرة في الحفلات الدينية والجنائزية .

ويظهر من الرسوم التي وصلتنا أن المصارعة كانت أكثر الألعاب الرياضية انتشاراً ، ولم تقتصر الرياضة على الرجال ، بل أخذ النساء يقطنن فيها ، ولدينا رسم واحد لسيدات يلعبن الكرة ، ورسوم كثيرة عن سيدات يقمن بحركات بهلوانية ، ولا سيما الشقلبة إلى الخلف . فإذا أراد القوم تسلية هادئة ، لجأوا إلى ألعاب منزلية شتى يلعبونها بقطع ولوح خشبي أشبه بالشطرنج ومن أبسط الألواح التي عثر عليها وأقدمها لوحة عليها رسم في شكل ثعبان ملتف حول نفسه . وزرى الواحاً أخرى مقسمة مربعات عددها أربعة وعشرون أو ثلاثون ، تتحرك عليها القطع طبقاً لقواعد نجهلها ، ولعلها اللعبة المعروفة اليوم باسم «السيجة» والتي لا يزال يلعبها كثيرون من أبناء الصعيد

أحمد نجيب هاشم

البيت ، وتجد النساء يطحن القمح بقطعة من الحمى على لوح كبير من الحجر ، ويمجن الأرغفة في أشكال مختلفة من الشعر والشوفان ويخبزها في قرن اسطوانى من الفخار أو أفران من اللبن ، ونلاحظ أن هذه الأفران كانت منخفضة ومفتوحة في عهد الدولة القديمة ومرافعة ومقفلة بعدها

كذلك نجد صناعات الجملة يأخذون الكعك المصنوع من الشعر أو حبوب البيشة ويكسرونه في الماء ، ثم يصفطونه بعد أن يتخمر في مناخل رفيعة ، ويمصرونه في أوان كبيرة ، وبمى غيرهم المصير الناتج في قدرين طويلتين . أما النبيذ ، فالراجح أنه لم يكن يصنع في المطابخ ، بل قرب الكروم نفسها ، فكان العنب يحمل في سلال ، ثم يوضع في مكبس ، هو لوح كبير من الحجر له سطح مجوف ، ثم يدهسه خمسة رجال أو ستة ممسكين بحبال مربوطة إلى عمود أفقي مثبت فوق رؤوسهم ، وبعد أن يصب النبيذ في قدر تحتية يوضع العنب المدهوس في قطعة من القماش أو في زكية يلف طرفاها لفاً عكسياً بقطعتين من الخشب يمسك كل واحدة منهما رجل ، وبهذه الطريقة يصر العنب عصرأ جيداً ، ثم يوضع هذا المصير الأخير في قدر ، وينقل المصير كله إلى قدر ليختم كل منها بالطين كما يفعل الفلاح اليوم بقدر عسله وجبنه ، ويصم النظام بخاتم اسطوانى ، أو في شكل جمران عليه اسم صاحب الكرم أو الموظف المشول عنه

وسائل التسلية :

وقد اعتقد المصري أن الترض من النبيذ هو إدخال السرور على نفسه ، كما أولع بإقامة الولائم فكان الجار يدعو جيرانه ليقضوا معاً «يوماً سعيداً» . وزرى في الرسوم الضيوف من رجال ونساء جالسين في هدوء يشاهدون ما أعد لهم من وسائل التسلية والسرور يشمون أزهار اللوتس ويحتسون النبيذ من الطاسة عند ما تقدم لهم ، وفي أثناء ذلك تمرق فرقة موسيقية على العود والقيثارة أنغامها الشجية ، ويقوم المغنون بدورهم ويصفقون بأيديهم تصفيقاً منتظماً ، ويعرض الراقصون والراقصات حركات بسيطة بالأذرع الأرجل والجسم . ويجب أن نذكر أن الموسيقى والرقص لم يكونا

الوكالة العامة لتوزيع مطبوعات

مكتبة ومطبعة

عيسى البابي الحلبي وشركاه

في العراق

إدارة المكتبة العصرية

في بغداد

لصاحبها محمود طه

وكلاهما في الألوكة

تليفون ٦٤٨٠ و ٤٢٧٦ و ٩٤٧٠